أوضاع الكوت السياسية خلال خمسينات القرن العشرين

الباحث رائد السوداني

محافظة واسط/العراق

تبقى حقبة الخمسينيات من القرن العشرين في العراق غنية بأحداثها ورجالها، والأهم من ذلك غنية بعبرها، ومهما تعمقنا بالحديث عنها وتعمق الباحثون الآخرون فيها وهم كثر نبقى بحاجة لمعلومات وأحداث مجهولة لم يتطرق إليها أحد. وأحد أهم أسباب هذا الغنى برأيي إنها نهاية وبداية ملامح وصور كبيرة. النهاية لوجود اسم الحقبة الملكية التي ظن القائمون عليها من الملك (فيصل الثاني) وولي عهده (عبد الإله بن علي) وأركان حكمهما بدءا من نوري السعيد، وتوفيق السويدي، وعلي جودة الأيوبي، وآل الباجة جي، وآل بابان، ومحمد فاضل الجمالي، ورفيق عارف، وغازي الداغستاني، وبهجت العطية، وسعيد قزاز وغيرهم الكثير إنهم يقفون على أرض قوية صلدة وليس على تل عال من الرمال المتحركة الذي أطاح بهم في لحظة فجر واحدة لا غير. وعلى الرغم من أنهم حملوا معول إسقاطهم بأيديهم بسبب عزلتهم عن الناس والدوران في حلقتهم الخاصة بهم إذ إنهم لم يسمحوا وقتها لأي كائن خارج نخبتهم أن يلعب اللعبة معهم فهم ورثة العهد العثماني وأبناء العهد الإنكليزي بامتياز، توافقت المصالح بينهم، وعززوها بالمصاهرة والتزاوج فيما بينهم فميزوا أنفسهم عن باقي ألوان المجتمع العراقي([1]) ويصفها علي كريم سعيد بأنها طبقة انعزالية متعالية([2]). تتبادل هذه النخبة أدوار المعارضة والموالاة فيما بينها، يسجن البعض، يغادر البعض الآخر لكنهم من نفس طينتهم. وقد ظن أعضاء هذه النخبة أن استنادهم إلى ركنين أساسيين سيحول دون سقوطهم ألا وهما الإنكليز، والإقطاع.

استشراء الإقطاع:

في حقبة الخمسينيات استشرى الإقطاع بصورة جلية في العراق لاسيما في الكوت مما كان له الأثر الواضح في سير حركة المجتمع العراقي وبنائه في المجالات التنموية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولهذا عدة أسباب وتراكمات بدأت منذ العشر الأوائل للحقبة الملكية، فقد كان الفلاح أو سكان الأرياف الذين يجاورون المدن لاسيما الكبرى منها يعيشون معاناة جراء المساوئ في العلاقات الاجتماعية الإنتاجية الجديدة([3]) كما يشير عماد أحمد الجواهري الى أن انتقال ملكية الأرض لأبناء المدن وتحسس الفلاحين لما يعيشه أبناء المدينة جراء الاحتكاك بهم أدى إلى نتيجتين: الأولى ظهور التحلل في العلاقات الاجتماعية القبلية([4]) وشعور الفلاحين بواقعهم المرير والظلم الاجتماعي وكذلك الانحطاط المادي الذي يعيشونه([5]) وهناك حقيقة يجب أن تذكر هي إن الإقطاع في الجنوب ليس بالضرورة نتيجة انتقال الملكية لأبناء المدن، بل إنه يتمثل بزعماء القبائل الذين تحولوا إلى سياسيين

وبرلمانيين وأعضاء مجلس نواب وأعضاء مجلس أعيان، بل حتى وزراء. وبالنتيجة تحولوا إلى سكان مدن يحضرون إلى مقاطعاتهم في المناسبات أو عند نهاية الموسم الزراعي أو عندما يبغون إظهار ملكهم ومملكتهم الخاصة أمام الملك أو ولي عهده وباقي أركان الحكم والوجهاء. ومن ثم فقد عزلوا أنفسهم عن أتباعهم ووضعوا شؤون أراضيهم وأموالهم بيد الوكلاء (السراكيل) القساة ليتفرغوا لشؤون السياسة، وبهذا ساهموا بحفر حفرة وقعوا فيها بسرعة دون أن يتداركوا شيئا من مصالحهم عندما وقعت الواقعة في ١٩٥٨/٧/١٤.

عانى الفلاح كثيرا وتحول في مناطق الإقطاع إلى كائن بلا إحساس عند الإقطاعي ووكيله، يُستغل جهده وماله وعياله أبشع استغلال وعليه أن يطيع صاغرا راضيا وإلا فالعقاب الذي ينتظره شديد ومؤلم. يذكر عماد أحمد الجواهري عن حال الفلاح ما نصه "والواقع فقد كان كل جانب من جوانب حياة الفلاحين بمثابة صرخة إنسانية بائسة تعبر عن مدى الاستغلال العميق الذي يمارس ضد هذه الفئة المحرومة من هذا الشعب، ذلك الاستغلال الذي ساهمت فيه القوى المتسلطة على رقاب الفلاحين ابتداء من الدولة ونهاية (بأدوات الشيخ الآدمية) التي أوجدت لكبح جماح الفلاحين"([٦]). وينقل عماد أحمد الجواهري عن وثيقة رسمية من سكرتير الواردات إلى وزير المالية في ١٩٢٦ما يأتي "ولو لم تأخذ الحكومة دراهم الفلاح لسارع الشيخ الجشع أو السركال أو التاجر الذي يعيش بالربح (الربا) إلى تنظيف جيب الفلاح "([٧]). الأمر الذي يؤكد أن الحالة الشاذة أخذت طريقها من وقت مبكر من عمر الحقبة الملكية.

وقد ذكرنا أن الإقطاع كان أحد ركني الحقبة الملكية، ليس بالقوانين فقط بل بالمصاهرة أيضا، فأعلى منصب في (الدولة العراقية) تزوج من كريمة الأمير محمد الحبيب أمير ربيعة، مما يدل على توحد المصير لدى الجانبين وكذلك المصالح المشتركة بينهما ليس الاقتصادية فحسب بل السياسية أيضا. ويشير حنا بطاطو الى أن ارتباط العائلة المالكة الوثيق مع شيوخ العشائر صار رمزا الآن في زواج الأمير عبد الإله من الأميرة هيام كريمة الشيخ محمد الحبيب أمير ربيعة وهذا انعكاس للعناية الفائقة التي أولتها العائلة المالكة لشيوخ العشائر في السنوات السبع عشرة الأخيرة([٨]). ويؤكد بطاطو رأيه حول انعكاس أثر العلاقة بين الطرفين على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في قوله "وخصوصا في تكثيف ممارسة تطبيق قانون تسوية الأراضي بما فيه فائدتهم .وبهذه الطريقة تحولت إلى الملكية الخاصة للمشايخ مساحات واسعة من الأراضي التي كانت أراضي للعشائر في العادة ومن أحسن أراضي الدولة مما زاد في قبضتهم، غير المنتجة أساسا، على الزراعة وفي الإبقاء على قراهم – في الوقت نفسه- بعيدة عن سيطرة الحكومة .وقد مكنتهم الملكية من أن يثقلوا بقوة متزايدة كاهل الفلاحين الذين تدنت أوضاعهم في أقاليم عدة إلى منزلة الأقنان .وأصبح المشايخ كابوسا اقتصاديا، وبدأوا يصيرون رمزا

للتباين الاقتصادي الهائل الذي أخذ في هذا الوقت يعيق، وحتى أكثر من العشائرية – التي صارت هي نفسها مهددة بهذا التباين – اندماج المجتمع وإدخال الفلاحين في نطاق الحياة الوطنية"([٩]).

ويذكر بطاطو أيضا أن السلطة الملكية بتحالفها مع الشيوخ توقفت في واقع الأمر عن الدور الذي يسعى للتوحيد الاجتماعي([١٠]). وبما أنها التزمت البنية الاجتماعية الريفية حسب رأي بطاطو أيضا فقد حكمت على أكثرية سكان العراق بأن يعيشوا بأوضاع هابطة([١١]) وشكلت في قادم الأيام مأزقا اجتماعيا، ومانعا لتقدم الاقتصاد العراقي في كافة مجالاته([١٢]) مما حول وبتوالي الأيام السلطة الملكية إلى عائق لأي تقدم اجتماعي، لا بل تحولت إلى عامل تخلف اجتماعي([١٣]). ولم يكتف عبد الإله بن علي بانصهاره بالكامل مع طبقة الشيوخ ومساندتهم في الحصول على أكبر المقاطعات الزراعية، وعلى الدخول في مجلس النواب بل اتجه لإدخال عوائل الشيوخ في الجانب التنفيذي لكن ما أعاقه هو مستوى هؤلاء المتدني في القراءة والكتابة. والدليل على التصاق رموز الحقبة الملكية بالشيوخ دخول ما يقرب (١٧) شيخاً وأغا إلى حزب الاتحاد الدستوري الذي أسسه نوري السعيد الحصان الرابح([١٤]) عام ١٩٤٩وفي الإدارة العليا له ومن ضمنهم الأمير محمد الحبيب والشيخ عبد الله الياسين([١٥]). ويؤكد بطاطو أن أمير ربيعة في العام ١٩١٧ كان مستأجرا لأربع مقاطعات حكومية بمساحة ٤٨٢٩٣ دونما، لكنه بعد أربعة عقود حين أصبح صهرا للأمير عبد الإله حاز (اللزمة) وهي ليست أقل من ست عشرة من المقاطعات الميري الصرف السابقة وبمساحة ٢٠٦٤٧٣دونما([١٦])،وأما محمد الياسين فقد كان لا يحوز في تلك السنة غير ثلاث مقاطعات – نصف مقاطعة بالطابو والبقية بالاستئجار لكن عند العام ١٩٥٨حاز بالطابو أو باللزمة إحدى عشرة مقاطعة بمساحة ٣٤٤١٦٨دونما([١٧]).

هجرة الفلاح:

لم يبق للفلاح ما يخسره في مسقط رأسه، وفي حقله وأرضه اذ فقد كل شيء سوى الرحيل عنها علّه يجد في الأرض الجديدة أرض المدينة ما يسد رمقه، فبدأت أولى الهجرات بين عامي ١٩٢٨-١٩٣٠. ففي المنطقة الجنوبية " هاجر الالاف من سكان الأهوار تجذبهم مغريات الكسب في المدن وتدفعهم قساوة الشيوخ وتردي أسعار المحاصيل الزراعية، ينشدون حياة أفضل، وبلغت حركة الهجرة من الأهوار ذروتها فيما بين ١٩٢٨- ١٩٣٠"([١٨]) علما إن حنا بطاطو يرجعها إلى عام ١٩٣٣. ومن هذا الوقت بدأ ينظر إليها بوصفها مشكلة جدية([١٩]). بعد ذلك بسنة توقفت الهجرة بسبب البطالة في المدن، وصعوبة إيجاد فرصة عمل([٢٠])، ولكن ابتدأت هجرة جديدة من الريف إلى المدينة أكبر وأضخم غيرت الواقع الاجتماعي للمدن الكبيرة مثل بغداد والبصرة، وهنا يجب إيضاح أمر مهم جدا وقبل الخوض في أرقام الهجرات فأن هؤلاء الذين خرجوا من رحم مأساة الحقول والمزارع والشيوخ واجهوا مأساة أخرى لا تقل عن سابقتها، فإذا كانت سابقتها اقتصادية ولها تداعيات اجتماعية، فإن الأرض

الموعودة للفلاح العراقي (المدينة) كانت مأساة اجتماعية في الدرجة الأولى، نظر إليهم نظرة غزاة يبغون قلع التقاليد والأعراف في المدينة فهؤلاء (الشراكوة) كما أخذ أهل بغداد وغيرهم يطلقون هذه التسمية عليهم تحولوا إلى (كابوس) ليس للطبقات الاجتماعية التي سكنت المدن والتي تطبعت بالطابع التركي أو المملوكي،إن لم يكن فيهم الكثير من الأصول التركية والشركسية والقفقاسية، بل تحول هؤلاء إلى مادة سياسية للطبقات الحاكمة والأيدلوجيات والأفكار المتصارعة معها على مساحة الزمن العراقي السياسي الحديث، ولابد هنا أن نلمس حقيقة أخرى مهمة هي إن هؤلاء خرج منهم كبار الشعراء وأهل الفن وكبار الرياضيين وهم أيضا أهل الثورات والانتفاضات فضلا عن أنهم القوة العاملة التي تمد العاصمة بغداد بالحياة. واذا نظرنا إلى إحصاء ١٩٥٧ نجد أن ٣٧٨٩٩٦ شخصا ولدوا خارج بغداد وفي يوم الإحصاء يمثلون ٢٩بالمئة من سكانها([٢١]). ومن أصل هؤلاء كان ٤١٣٤٠ أي ما يعادل ١٠% من الكوت([٢٢])! لكن بيار جان لويزارد له إحصائية أخرى تقول: إن ٦٠% من الفلاحين النازحين كانوا من الكوت([٢٣]). وهو يعزو سبب إقامة النظام القبائلي العشائري وتحويل رؤساء القبائل إلى سادة مقابل عبيد (الفلاحين) أو كما يسميها جعلوا الشيوخ في مرتبة (ملاك الأراضي) يعزوه إلى سعي بريطانيا لكسر التضامن القبلي الذي يعد وقتذاك قاعدة للحركات الاجتماعية والسياسية في قلب الطائفة الشيعية([٢٤]) حتى قيل في زمن التصدي للغزو البريطاني (الجهاد) إن القبائل جيش المجتهدين([٢٥]). وبعد الهجرة وحسب لويزارد أضحت فتاوى المجتهدين لم تجد القاعدة الاجتماعية التي تحتاجها لمقاومة الانتداب البريطاني إذ هناك قرى من المناطق الشرقية لدجلة والكوت والعمارة أفرغت من أهلها بسبب هذه الهجرة الريفية الواسعة التي لا نظير لها في الوطن العربي([٢٦]).وردا على بيار جان لويزارد في أن النسبة الأكبر من المهاجرين من الكوت لابد من ذكر إن طبيعة مدينة مثل الثورة (الصدر) تطبعت بطابع العمارة وتحولت فيما بعد إلى عمارة كبيرة وليس صغيرة. وهكذا الحال في منطقة الشعلة في منطقة الكرخ من بغداد مما يشير إلى أن من هاجر من العمارة أكثر ممن هاجر من الكوت.

تأخر الزراعة :

لحامد مصطفى المقصود رأي في أسباب الهجرة الفلاحية من الريف إلى المدينة (العاصمة تحديدا) فهو يعزوها ليس فقط إلى الظلم الاجتماعي والاقتصادي حين يورد عنهما صورة قاتمة([٢٧]) ففضلا عن كل الأسباب التي أوردناها يذكر حامد المقصود أسبابا أخرى هي: تخلف العمل الزراعي وجهل الفلاح وقلة درايته وخبرته عامة([٢٨]) وأيضا ركود الحالة الاقتصادية في العراق لاسيما ركود الاستثمار في الريف العراقي. كل هذه أسباب جعلت من فرص العمل في الريف تصل إلى أدنى مستوى

لها([٢٩]). وشهد الريف وفرة في اليد العاملة فاضت بصورة كبيرة عن حاجات الزراعة بمستواها المتخلف آنذاك([٣٠]).

الصرائف مرة أخرى:

في الصرائف رقم كبير من أهل الكوت انتقل إلى هذه الصرائف التي غلفت بغداد في أكثر طبائعها (الشروكية) كما أطلق على هؤلاء، ونقلت بعضا من مناظر مدنهم الأصلية([٣١]). وينقل حنا بطاطو في إحصائية دقيقة أرقاما من المكتب الرئيس للإحصاء تفيد بوجود ١٦٤١٣ صريفة في عام ١٩٥٦شيدت في بغداد الكبرى([٣٢]) موزعة على تسع مناطق. وهي عبارة عن أكواخ،كل كوخ يتكون من غرفة واحدة ومادة بنائها القصب والحصير([٣٣])،ومعدل شاغلي كل صريفة ٥- ٦ أشخاص أي إن مجموع سكان هذه المجمعات فقط ٩٢١٧٣نسمة([٣٤])،أما الباقي فقد كدسوا أنفسهم في مناطق مدينة بغداد الداخلية المزدحمة([٣٥]) وفضلا عن الصرائف المبنية من قصب وحصير كان هناك ٢٧٤٩١بيتا طينيا(كوخ) في بغداد الكبرى([٣٦]) سكن فيها المهاجرون من العمارة والكوت.

عاش المهاجرون، سكان الصرائف حياة صعبة للغاية ففي عام ١٩٥٢ قام الدكتور (كريتشلي) من كلية الطب في بغداد بمسح على مجموعة من هذه الأكواخ فوجد أن هذه الأكواخ بنيت في موقع كانت البلدية في بغداد تتخذه كمدفن للنفايات والفضلات البشرية والحيواني، وهكذا يفعل الناس الاعتياديون([٣٧]). هذا، "وكانت بعض مياه مصارف سطح أرض المدينة تضخ أيضا إلى المنطقة بحيث كان السائل الملوث يتدفق عبر تجمع الصرائف"([٣٨]). وعن الأوضاع داخل الكوخ ينقل لنا حنا بطاطو عن الدكتور كريتشلي ما نصه إن " الأكواخ سيئة التهوية، مزدحمة،ليس فيها ما هو خاص، وكثيرا ما كانت تأوي الحيوانات المنزلية إلى جانب العائلة. ولم تكن في الصرائف أو في المنطقة أية ترتيبات صحية (بمعنى المجاري والمراحيض)..وكان السكان يتغوطون – ببساطة – أينما كان ...ولم يكن هنالك أي تزويد بمياه نقية للشرب. وكان يجب نقل هذه المياه من خارج المنطقة وتخزينها في (حب) وكان الأثاث المعتاد عبارة عن صندوق فج وبعض أدوات الطبخ وفراش واحد تكوم فوقه بطانيات نوم بقية أفراد العائلة الذين كانوا ينامون على الأرض، ويعتقد إن كل لقمة طعام يتناولها هؤلاء الناس كانت ملوثة. ووجد أن معدل وفيات الأطفال ٣٤١ لكل ١٠٠٠حالة حمل. ومن الواضح أن أوضاعا معيشية كهذه لم تكن مؤذية بالنسبة لصحة سكان الصرائف فحسب، بل كانت تهدد سكان بغداد أيضا"([٣٩]).

ونستمر في توضيح حالة المهاجرين من الكوت والعمارة إلى بغداد نتيجة استشراء الإقطاع وشعور الفلاح بأن الحياة قد انعدمت هنا ولابد من الرحيل مهما كلف الثمن من متاعب وصعوبات لاسيما إنهم يتلقون أخبارا بأن سابقيهم قد انخرطوا في أعمال وإن لا تقل مهانة عن حياتهم السابقة لكنهم يستطيعون الخلاص منها وقت شاءوا، ويسمعون أيضا إن العديد منهم قد انخرط في سلك الشرطة

والجيش مما شكل حافزا للباقين في أن يهاجروا، فظلت هذه العملية بلا انقطاع حتى بعد ١٤/ تموز /١٩٥٨لاسيما بعد البدء بتسجيل الأسماء التي ستوزع عليها المساكن في الثورة والشعلة والرحمانية. لكن هؤلاء المعدمين والمسحوقين القادمين من العمارة والكوت([٤٠]) والذين سكنوا في الميزرة (أي المجزرة) في منطقة شيدت عليها فيما بعد منطقة النهضة ومنطقة الشاكرية (نسبة إلى شاكر الوادي وزير الدفاع في العهد الملكي) وهي الآن كرادة مريم وإن ظلوا يعانون اقتصاديا واجتماعيا نتيجة حسابات سياسية واجتماعية رافقت بناء المجتمع السياسي العراقي إلا أنهم تحولوا إلى عصب الحياة العراقية كلها والمجتمع البغدادي على وجه الدقة وفي كل مجالاتها كما أسلفنا، وليس فقط طوعتهم الحكومة الملكية في سلك الشرطة لقمع المتظاهرين والمعارضين لحكمها كما يصور البعض وتصور الحكومات ومنهم حنا بطاطو الذي يذكر "كانت شرطة بغداد قد (تعمرنت) (نسبة إلى المهاجرين من العمارة) إلى درجة غير بسيطة، مما أعطى سمة خاصة لما أصبح في المرحلة الأخيرة من مراحل النظام الملكي أداة قمع كلاسيكية .ولم يكن هنالك أبدا مقدار وافر من التعاطف بين أبناء العشائر وأبناء المدن، وذلك يعود بدرجة كبيرة إلى قلة الاتصال أو التماس الحقيقي بين الجماعتين"([٤١]) لكن هل يكفي هذا ليتطوع هؤلاء في الشرطة القمعية لو لم تسد طرق المعيشة الأخرى أمامهم، وهل تقتصر صورة ابن المدينة الراسخة عند المهاجر من الكوت والعمارة فقط على المرابي والجشع([٤٢]) فكيف إذن اقتنعوا بعد حين بطروحات أيدلوجية انضموا إليها وتعرضوا إلى شتى صنوف التعذيب والقتل لتكون اضافة للقهر الاجتماعي الذي مارسته الحكومات المتعاقبة والمجتمع على حد سواء، ونعلم أن الأيدلوجيات جاء بها أبناء المدن المرابين والجشعين وليس أبناء الريف.وبناء على هذه النظرة كانت حالات القتل والجرائم الكبرى تتجه أنظار السلطات فيها إلى هذه الرقعة ذات الكثافة السكانية العالية، والمساكن المتلاصقة ببعضها والمتشابهة البناء نتيجة للتغذية الذهنية الرسمية ضد هذه الشريحة.

النظرة العدائية لهم:

يذكر عبد الكريم الأزري إنه في أواخر سنة ١٩٥٤أو أوائل ١٩٥٥ أنه طلب من نوري السعيد رئيس الوزراء حينها أن يشاهد بأم عينيه وضع المهاجرين من جنوبي العراق الذين كانوا حسب وصفه يتكدسون فيما كان يعرف وقتها بـ(العاصمة)([٤٣]). ويصف الأزري الحال بما نصه "هناك كانت تتكدس هذه المجموعة البائسة من المهاجرين من جنوب العراق بأعداد هائلة وقد ساقتهم ظروفهم والظلم الاجتماعي الذي كانوا يقاسونه في مواطنهم الريفية وإهمال الحكومات لهم إلى الهجرة إلى بغداد والإقامة فوق هذه المياه الآسنة القذرة السوداء مع حيواناتهم. وكان منظرهم، وخاصة أطفالهم العراة يتخبطون في الأوحال ويتعرضون للغرق في تلك المياه القذرة، وهو ما يفتت الأكباد ويدمي القلوب .هناك كنت ترى الكرامة الإنسانية قد هدرت هدرا"([٤٤]). ويؤكد الأزري أنه كان يزورهم باستمرار([٤٥])

وهو الذي شغل منصب مسؤول البلاط الملكي مدة من الزمن ووزير للمالية وناب برلماني أيضا، ويورد الأزري مفارقة لهؤلاء المهاجرين الذين يرفضون ترك بغداد بوضعهم المزري والعودة إلى ديارهم الأصلية إذ يسألهم: هل هاجرتم لكي تعيشوا في هذا الوضع الذي أنتم فيه الآن ساكنين في ((صرائفكم)) المنتشرة وسط هذه المستنقعات وهذه المياه الآسنة القذرة؟ فيجيبوه: إن وضعنا هذا الذي تراه، على سوئه، أفضل بكثير من وضعنا الذي كنا فيه هناك إننا نجد هنا، على الأقل، مجالا للعمل مهما كان وضيعا – نؤمن به رغيف العيش فلا نموت جوعا ونكسي به أنفسنا فلا نمشي عراة .هل تتصور أننا نترك (ديرتنا) و(وطننا) لولا الضيق الذي كنا نعاني منه أشد المعاناة والذي كان يخنق أنفاسنا"([٤٦]) وبعد أن يورد كيف استجاب نوري السعيد لرغبته في زيارة منطقة الصرائف وأمره ببعض المعالجات البسيطة يذكر الأزري إن السعيد دفع له متصرف بغداد عبد الجبار فهمي فيصفه إنه تقرير مليء بالحقد على المهاجرين الذين وصفهم بالبائسين وكأنهم من الأجانب وقد هاجروا إلى العراق من بلد آخر([٤٧])! ثم يسترسل فيذكر "وقد صبت اللجنة جام غضبها عليهم لا لذنب اقترفوه سوى إنهم جاؤوا بأعداد كبيرة إلى بغداد، فغيروا وضعها الديمغرافي، وأخذوا يضايقون، حسب رأي اللجنة، سكانها الأصليين .مع إنهم سدوا حاجة بغداد الماسة لليد العاملة"([٤٨]). ويخلص تقرير اللجنة بتوصية بعدم تسهيل أمر المهاجرين بالبقاء في بغداد بمنحهم أراض سكنية أو بناء دور لهم([٤٩]).

إن العقلية التي أنتجت هذا التقرير تعاني تراكمات عثمانية قديمة وتعاني من خشية وخوف على وجودها، وعلى مراكزها، وفعلا تحول هؤلاء إلى الرقم الأول في الحراك السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتحولوا إلى طرف رئيس مقابل ورثة العثمانيين وربائب الإنكليز فيما بعد في صراع وجودي اتخذ عدة وجوه، تارة يسارية، وتارة أخرى دينية وأخرى طائفية وغير ذلك من الوجوه.

أحزاب أفل نجمها:

في خمسينيات القرن العشرين بزغت أحزاب جديدة لها طروحاتها الجذابة للشباب أكثر من أحزاب سيطرت بخطاباتها الوطنية والقومية لا بل استقطبت الكثير من شباب تلك الأحزاب، وهذا الأمر شمل حزب الاستقلال أكثر من غيره والحزب الوطني الديمقراطي لحساب حزب البعث وحركة القوميين العرب وأحزاب أخرى، لتبقى الساحة فيما بعد أي في نهاية الخمسينيات وعقد الستينيات للبعث والحزب الشيوعي العراقي .

حزب الاستقلال: حزب قومي بامتياز تأسس من خلال أعضاء نادي المثنى الذي كان يمثل الاتجاه القومي منذ ثلاثينيات القرن العشرين. وجاءت الفكرة في المعتقل إثر فشل حركة ١٩٤١ وهناك رأي يقول ان فائق السامرائي هو صاحب الفكرة([٥٠])، وحزب الاستقلال كما يصفه ليث الزبيدي حزب برجوازي اقتصرت قيادته وأعضاؤه على الطبقة البرجوازية والمثقفة ولهذا السبب كان عمله غير

جماهيري واقتصر على رفع المذكرات والاحتجاجات إلى بلاط الملك([٥١]) لكن لباقر إبراهيم الموسوي([٥٢]) رواية تعود إلى عام ١٩٤٨تختلف عن رأي ليث الزبيدي وتبين إن حزب الاستقلال لا يختلف عن باقي الأحزاب في ضمه لعناصر تؤمن بالعنف طريقا في تصفية حساباتها مع الأحزاب المنافسة الأخرى على الساحة العراقية، فبعد العمل الكبير الذي اضطلع به طلاب (كلية الملك فيصل) و"منذ الأيام الأولى لشهر كانون الثاني، كان طلبة كليتنا يشاركون مع طلبة وجماهير الأعظمية، وبغداد كلها، مشاركة نشيطة في التظاهرات، احتجاجا على المباشرة بعقد المعاهدة الجائرة بين العراق وبريطانيا (معاهدة بورتسموث)"([٥٣]). وبعد أن يسرد كيفية التظاهرات والانتصار فيها يذهب باقر إبراهيم الى أن هذا جعل الدوائر الأمنية تتربص بالقوى الوطنية الدوائر وحياكة الدسائس بينها، يساعدها في الشعارات المرفوعة المتعارضة التي رفعتها الأحزاب الوطنية([٥٤]) إثر ذلك حدثت استفزازات ومشاجرات وعراك بالأيدي بين الشيوعيين والقوميين الذين كانوا قلة فانسحبوا ليعقب هذا الانسحاب اللافت للنظر مداهمة للكلية من قبل الاستفزازيين([٥٥]). لجأ الطلبة الذين حوصروا في الكلية إلى سد الأبواب والمنافذ في الكلية وأحاط الطلاب أسرهم بالأمر واتصلت الإدارة بالجهات المختصة فلم يحرك ساكنا وبدأ الهجوم في يوم تشييع شهداء الوثبة بعد وصول حشود كبيرة في الليلة السابقة وكان هجوما عنيفا استخدمت فيه الهراوات والمدي والقضبان وقبضات الحديد وكانت ضرباتهم توحي بأنهم قد تدربوا على مثل هذه الأعمال([٥٦]). هذا، وقد أصدرت الأحزاب الثلاثة: الاستقلال، والوطني الديمقراطي، والأحرار بيانا يصفه باقر إبراهيم بالعمومي، علما إن الاستقلال قد وجهت بعض الإدانات له في الوقوف وراء الحادث لمجاهرته بالعداء للشيوعيين([٥٧]).ويصف الزبيدي الاستقلال بأنه حزب قومي لكنه إقليمي في تنظيماته ولم تتعد حدود العراق([٥٨]) إذ كان ينادي ويدعو للوحدة العربية لكن بشكل عاطفي([٥٩]).اشترك هذا الحزب في إقامة جبهة الاتحاد الوطني مع الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث والوطني الديمقراطي التي سنتناولها بالبحث لاحقا. وهنا يجب أن نلاحظ أن حزب الاستقلال وعلى لسان زعيمه أقر وكما مبين في الهامش أدناه بقصد أو دون قصد باستخدام العنف في العمل السياسي. ولا غرو إذ نجد القوميين العرب والبعثيين قد استمرأوا العنف من أيام حزب الاستقلال فانتموا إلى جهات تؤمن بالعنف أصلا طريقا في حياتها السياسية لاسيما البعث ومثله حركة القوميين العرب.

الحزب الوطني الديمقراطي: ارتبط هذا الحزب باسم مؤسسه أو رئيسه (كامل الجادرجي) وهو إرث جماعة الأهالي التي كان لها أثر مهم في انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦. وكانت جريدة الأهالي النواة الأولى لتأسيسه إذ صدرت مجددا عام ١٩٤٢. ولم يمارس الحزب نشاطه العلني إلا بعد أن أجيزت الأحزاب عام ١٩٤٦في العراق([٦٠]). قدم طلب التأسيس في ١٩٤٦/٣/٥من قبل كامل الجادرجي ومحمد

حديد وعبد الكريم الأزري وحسين جميل وقد تمت الموافقة عليه في ٤/٢من العام نفسه([٦١]). ويضيف ليث الزبيدي: إن الهيئة المؤسسة ضمت فضلا عن الأسماء المذكورة شخصيات برجوازية أخرى مثل عبد الوهاب مرجان وعبود الشالجي، ولذلك وصف الحزب بأنه يمثل الحركة الديمقراطية المعتدلة([٦٢]). إن كلا من كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل وصادق كمونة كانوا قد انشقوا عن جماعة الأهالي وكونوا الحزب الوطني الديمقراطي مع بعض الديمقراطيين المحافظين، الأمر الذي حدا بعبد الفتاح إبراهيم أن كامل الجادرجي أن ينجزه([٦٣]). هذا وقد تصارع تياران في هذا الحزب منذ أيامه الأولى، الأول يمثله فاضل حسين الذي لم ينضم للحزب كونه مدرسا (موظفا) لكنه استطاع أن يتفق مع كل من طلعت الشيباني ابن مدينته وزكي عبد الوهاب وأقنع أصدقاءه القدماء من الطلبة السابقين الذين تأثروا بآرائه وتوجيهاته في الانضمام للحزب فكونوا جناحا يساريا يقاوم الاتجاهات المحافظة للجناح اليميني على حد وصفه الذي يمثله كامل الجادرجي والهيئة المؤسسة الأخرى([٦٤]). ويذكر فاضل حسين: إن العادة جرت في الحزب وعلى مدى حياة الحزب في أن ينتخب كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل لعضوية هيئة الرئاسة في الحزب المذكور مما حفزه بتوجيه رسالة إلى اللجنة الإدارية ينتقد فيها الاتجاهات الجديدة في الحزب والتنظيم السيئ والسلطات الواسعة التي تتمتع فيها هيئة الرئاسة واصفا الحزب بأنه لا ديمقراطي ولا وطني الأمر الذي أغضب أعضاء اللجنة بشدة([٦٥]).ويصف فاضل حسين الحزب بأنه قام على ركائز ثلاث هي زعامة الحزب وانحصرت بكامل الجادرجي ومحمد حديد الذي مثل الخبير والمثقف بالأمور الاقتصادية، وحسين جميل ويصفه بلولب الحزب ومحركه وخبيره القانوني والدبلوماسي([٦٦]) .والركيزة الثانية جريدة الأهالي وأخواتها على حد تعبيره، والثالثة قواعد الحزب التي لم يكن اثرها محسوسا بشكل كبير فالحزب يعد حزب المثقفين ومن الأحزاب الضعيفة فلم يستطع القيام بأي عمل منفرد إيجابي مهم مثل تنظيم مظاهرة أو إسقاط وزارة ويصفه بأنه دائما كان عالة على غيره من المنظمات السياسية الأخرى([٦٧]) ويعيب فاضل حسين (اليساري) على زعامة الحزب كامل الجادرجي (اليميني) بأنها عاجزة عن منع تسلل بعض الشيوعيين إلى الحزب بقصد السيطرة عليه وتوجيه سياسته بما يريدون وجعله واجهة شيوعية([٦٨]).

وقد يسأل سائل إن الوطني والاستقلال ساهما في جبهة الاتحاد الوطني مع البعث والشيوعي وقد أضعفا الحكم الملكي ومن ثم الإطاحة به ؟ والإجابة على هذا السؤال تكون من عدة وجوه، الأول إن الحكم الملكي قد وصل مداه في ذلك الوقت ولابد أن يزول بفعل العوامل التي ذكرت أعلاه وبفعل شيخوخة القائمين عليه وعدم السماح بتصدي وجوه جديدة وأيضا وصل الحال في ذلك الوقت الى حد أن أي فصيل أو حزب وكيان إذا تحرك قبل غيره سيتمكن من إسقاط هذا الحكم لكن هذا لا يعني إلغاء أثر الحزبين في تلك المدة ولا ينكر إن قيادة الحركة في ١٤/ تموز قد اتصلت بكامل الجادرجي في سجنه

ومن ثم عينت محمد مهدي كبة زعيم الاستقلال عضوا في مجلس السيادة لكن أثرهما ليس كأثر الشيوعيين حتما ولا قوة العسكر .والحقيقة إن الاستقلال والوطني الديمقراطي ضما عناصر لا ينكر ثقلها على النخبة ولا حتى تأثيرها في مجريات الأمور .

كانت أياما زاخرة بالحراك والحراك المضاد شهدها العراق ومدنه والكوت في مقدمتها. الحركات الوطنية متفاعلة مع الأحداث سواء كانت في العراق أم في الوطن العربي، أحزاب تآلفت وتحالفت، تصارعت وتنافست بحدة، كونت جبهة ضد الحكم القائم، تظاهرت سوية، احتفلت بسقوطه أيضا سوية، جابهت السلطة وإن بتفاوت الأعداد لكن تواجد أي فرد من أي حزب يحسب له ولحزبه.

تأسست في هذه الحقبة أيدلوجيات مقابل أيدلوجيات، لم يكن العراق غائبا في هذه الحقبة عمّا جرى في مصر والتغيير الذي حصل في ٢٣/ ١٩٥٢/٧وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر بقيادة بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل. فتفاعلت الجماهير تفاعلا شديدا حتى أعلنت انتفاضات متعددة في العراق وليس انتفاضة واحدة تندد بهذا العدوان، وبموقف السلطة، وكانت للكوت حصة وحصة كبيرة تمثلت في مظاهرات خرجت في الكوت (المركز) والفيصلية (العزة حاليا) وفي مدينة النعمانية([٦٩]) وكانت الحصة الأكبر في انتفاضة الحي وإعدام علي الشيخ حمود وعطا الدباس نتيجة اشتراكهما في تلك الانتفاضة.

ونؤكد كما في كل مرة إن النظام البوليسي القاسي، وعمليات البطش، والتعذيب، والتصفيات إنما أسست في الحقبة الملكية وكان مصداقها ما حدث في ١٩٥٦سواء في الكوت أو في غير أماكن من العراق مثل النجف وبغداد والعمارة والبصرة لكن تبقى حادثة الحي هي الأبرز. وفي الخمسينيات وبالتحديد في ١٩٥٧وبعد أن استشرى الإقطاع في العراق، وفي الكوت أيضا حيث حدثت الهجرات الداخلية الكبرى من مدن أو معاقل الإقطاع نحو البصرة وبغداد العاصمة التي أخذت العدد الأكبر من المهاجرين الفلاحين وعندما نلقي نظرة على إحصاء ١٩٥٧نجد إن الذين كانوا يعيشون في بغداد لكنهم ولدوا في أماكن أخرى كان عددهم ٣٧٨٩٩٦شخصا([٧٠]) هذا وقد سجل في تلك السنة ١١٤٧٠٨مهاجرا من العمارة و٤١٣٤٠ مهاجرا من الكوت([٧١]). لكن هل كانت انتفاضة الحي وقبلها أحداث سجن الكوت والهجرة هي فقط ما خزنته ذاكرة أهل الكوت من أحداث؟ سنجد في شهادات أبناء الكوت وما حوته الوثائق الأمنية بأن في هذه المدينة وفي هذه الحقبة تحديدا حراكا سياسيا هائلا طالما أكدناه.

هوامش البحث

(١) علي كريم سعيد، العراق البيرية المسلحة حركة حسن سريع وقطار الموت ١٩٦٣ص١٣دار البراق – لندن

(٢) علي كريم سعيد، المصدر السابق نفسه

(٣) عماد أحمد الجواهري، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤- ١٩٣٢ص٣٦٦،دار الحرية للطباعة ١٩٧٨

(٤) عماد أحمد الجواهري، المصدر السابق نفسه

(٥) عماد أحمد الجواهري المصدر السابق نفسه

(٦) عماد أحمد الجواهري المصدر السابق نفسه ص٣٥٩

(٧) عماد أحمد الجواهري المصدر السابق ٣٦٠

(٨) حنا بطاطو العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية ص٥٠منشورات فرصاد –إيران،الكتاب الاول.

(٩) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(١٠) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(١١) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(١٢) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(١٣) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(١٤) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٤٠

(١٥) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٣١

(١٦) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٤٠

(١٧) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(١٨) شاكر مصطفى سليم،الجبايش دراسة انثربولوجية لقرية في أهوار العراق ص٣٩مطبعة العاني – بغداد ط٢

(١٩) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٦١

(٢٠) شاكر مصطفى سليم المصدر السابق نفسه

(٢١) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٦١

(٢٢) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٢٣) بيار جان لويزارد مدينة الصدر شكل جديد من أشكال التعبئة في المدن ترجمة عفيف عثمان ص٨معهد الدراسات الاستراتيجية –دراسات عراقية

(٢٤) بيار جان لويزارد المصدر السابق نفسه ص٦

(٢٥) بيار جان لويزارد المصدر السابق نفسه

(٢٦) بيار جان لويزارد المصدر السابق نفسه

(٢٧) في صفحة ١٨٨من كتابه يذكر حامد مصطفى المقصود والموسوم سيرة ثائر مدارات الأخوة الأعداء ما نصه"وكان على الفلاحين في العمارة(تذكر العمارة كباقي الألوية) أن يزرعوا قطعة الارض المخصصة لرجال الدين الموالين للاقطاعيين والتي تعرف (المحرمات)،وكان على الفلاحين الذين يعيشون في على حافة الهور أن يجندوا أنفسهم لتوفير كميات ضخمة من القصب والبردي لبناء بيت الشيخ ومضيفه وفي العمل لبناءيهما،كما كان يتعين على هؤلاء أيضا مشاركة الشيخ فيما يحصلون عليه من سمك وطيور وما يجنونه من أعلاف من الأهوار وتأمين الحطب له وما يجمعون من ريش الطيور لحشو الوسائد وتجمع النسوة لتهبيش الرز له".

(٢٨) حامد مصطفى المقصود،سيرة ثائر مدارات الأخوة الأعداء ص١٨٩،مكتبة مصر دار المرتضى

(٢٩) حامد مصطفى المقصود المصدر السابق نفسه

(٣٠) حامد مصطفى المقصود المصدر السابق نفسه

(٣١) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٦٣

(٣٢) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٣٣) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٣٤) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٣٥) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٦٤

(٣٦) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٣٧) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٣٨) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٣٩) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٤٠) ألف الكثير من الروايات العراقية تحكي قصة الهجرة من الريف إلى المدينة

(٤١) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه ص١٦٤

(٤٢) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه

(٤٣) عبد الكريم الأزري تاريخ ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨جزء أول ص٤٩٨مركز الابجدية بيروت لبنان

(٤٤) عبد الكريم الأزري المصدر السابق نفسه

(٤٥) عبد الكريم الأزري المصدر السابق نفسه

(٤٦) عبد الكريم الأزري المصدر السابق نفسه

(٤٧) عبد الكريم الأزري المصدر السابق نفسه ص٥٠٠

(٤٨) عبد الكريم الأزري المصدر السابق نفسه

(٤٩) عبد الكريم الأزري المصدر السابق نفسه

(٥٠) ليث الزبيدي، ثورة ١٤تموز في العراق ص٦٧دار الرشيد- بغداد

(٥١) ليبث الزبيدي، المصدر السابق نفسه ص٦٨

(٥٢) عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي منذ العام ١٩٦٢،ومسؤول عن التنظيم المركزي في الحزب من ١٩٦١- ١٩٨٤خرج من الحزب لاختلافه في بعض الرؤى منذ العام ١٩٨٩

(٥٣) باقر إبراهيم،مذكرات باقر إبراهيم ص٢٦دار الطليعة بيروت ط١

(٥٤) باقر إبراهيم المصدر السابق نفسه ص٣٠

(٥٥) باقر إبراهيم المصدر السابق نفسه

(٥٦) باقر إبراهيم المصدر السابق نفسه

(٥٧) باقر إبراهيم المصدر السابق نفسه،ويشير محمد مهدي كبة زعيم حزب الاستقلال في مذكراته الصادرة عن دار الطليعة في بيروت ص٢١٨بأن السلطات في العهد الملكي حاولت بشتى الوسائل أن تجعل من الحزب مخلب القط في مواجهة الشيوعيين .لكنه في ص٢٤٨يصف الحال الذي ذكره باقر إبراهيم تحت شغب الشيوعيين وانهم استمروا في شغبهم وتظاهراتهم ويطوفون في الشوارع ويتجمعون في الساحات العامة ويستمر بالسرد في الحجج إلى أن يصل إن السلطات اتخذت بعض الاجراءات لمجابهة نشاط الشيوعيين وشغبهم علما إن محمد مهدي كبة كان في ذلك الوقت وزيرا للتموين في الحكومة.

(٥٨) ليث الزبيدي المصدر السابق نفسه

(٥٩) ليث الزبيدي المصدر السابق نفسه

(٦٠) ليث الزبيدي المصدر السابق نفسه ص٧٠

(٦١) ليث الزبيدي المصدر السابق نفسه

(٦٢) ليث الزبيدي المصدر السابق نفسه

(٦٣) فاضل حسين تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي ١٩٤٦- ١٩٥٨ص٣٦مطبعة الشعب – بغداد ١٩٦٣

(٦٤) فاضل حسين المصدر السابق نفسه ص٣٨

(٦٥) فاضل حسين المصدر السابق نفسه ص٤٠

(٦٦) فاضل حسين المصدر السابق نفسه ص٣٩٨

(٦٧) فاضل حسين المصدر السابق نفسه

(٦٨) فاضل حسين المصدر السابق نفسه ص٣٩٩

(٦٩) أحرار العراق،انتفاضة العراق الأخيرة عرض وتحليل ص٥٩ بلا مؤلف ولا دار نشر

(٧٠) حنا بطاطو العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني ختى قيام الجمهورية الكتاب الاول ص١٦١منشورات فرصاد

(٧١) حنا بطاطو المصدر السابق نفسه